

المحاضرة الثالثة: اللغة العربية واللغات السامية

1/ فصائل اللغات (تطرقنا إليها)

2/ اللغات السامية: والمراد بها: لهجات سكان القسم الجنوبي من غرب آسيا من حدود الأردن شمالاً إلى البحر العربي جنوباً، ومن خليج العجم شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً. وهي منسوبة إلى سام بن نوح — عليهما السلام — باعتبار أن المتكلمين بها هم في الجملة من نسله.

وقد اختار الباحثون الغربيون هذه التسمية؛ حيث لاحظوا — وهم يقسمون لغات العالم — أوجه شبه بين مجموعة اللغات العربية والعبرية والحبشية والسريانية، والآشورية، والآرامية، وغيرها من اللغات؛ فاعتقدوا أنها — في الأصل — لغة واحدة، وأن أهلها يسكنون في بقعة واحدة، ثم تفرقوا في الأرض، وانتشروا، واختلفت ألسنتهم، وتباينت لغاتهم.

وقد اختار العالم الألماني (شلوتزر) اصطلاح اللغات السامية؛ لإطلاقه على هذه اللغات، ويعد أول من استخدم هذا الوصف، وذلك في القرن الثامن عشر الميلادي.

وقد استمد هذه التسمية من جدول تقسيم الشعوب في الإصحاح العاشر من سفر التكوين في التوراة، وهو الجدول الذي يرجع الشعوب التي عمرت الأرض بعد الطوفان إلى أبناء نوح — عليه السلام —: سام، وحام، ويافث، والذي جعل الآشوريين، والآراميين، والعبريين من أبناء سام.

وقد ارتضى الباحثون هذه التسمية رغم اعتراضهم على التقسيمات الموجودة في الجدول؛ لأن الجدول أدخل في الساميين شعوباً ليسوا منهم، واستبعد شعوباً من الساميين؛ لاعتبارات

دينية، وسياسية.

ولكن ذلك التقسيم _ كاصطلاح علمي _ كتب له الشيوع على ما فيه من تجاوزات.
وقد عرف كثيرٌ من علماء المسلمين قبل القرن العاشر الميلادي وبعده صِلاتِ القربى بين الشعوب السامية، كما عرفوا أنهم من ذرية سام بن نوح.

فالخليل بن أحمد الفراهيدي ت170هـ _ القرن الثامن الميلادي _ يقول في كتابه العين:
"وكنعان بن سام بن نوح ينسب إليه الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية".

والجوهرى من علماء القرن الرابع الهجري _ العاشر الميلادي _ يقول: "وسام أحد بني نوح _ عليه السلام _ وهو أبو العرب".

وابن حزم الأندلسي من علماء القرن الخامس الهجري يقول: "إن الذي وقفنا عليه، وعلمناه يقيناً أن السريانية، والعبرانية، والعربية والتي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير _ واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها. . . فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان، واختلاف البلدان، ومجاورة الأمم، وأنها لغة واحدة في الأصل".

بل إن من علماء العربية من عرف بعض اللغات السامية وغيرها، فأبو حيان الأندلسي أَلَّفَ في نحو الحبشية والتركية.

ولكن علماء العربية لم يسعوا إلى إجراء البحوث المقارنة بين العربية وغيرها، وربما كان ذلك لاعتقادهم أن لغتهم أسمى من أن تقارن غيرها، وتقديسهم لها جعلهم يربؤون بأنفسهم عن مقارنتها بلغات أخرى.

2-1- البحث التاريخي المقارن للغات السامية

البحث التاريخي والمقارن للغات السامية وليد القرن التاسع عشر الميلادي، وقد برزت هذه البحوث على أيدي الغربيين بعد تطوير البحوث اللغوية، وللبحث التاريخي المقارن في اللغات السامية فوائد عديدة منها:

1_ معرفة تاريخ الشعوب السامية التي تتصل مع الشعوب بصلات القرى، وعاداتهم، وتقاليدهم، ودياناتهم، وحضاراتهم وأثر ذلك على العرب.

2_ أن البحث التاريخي المقارن يساعد على تفهم كثير من قضايا اللغة ويفسر بعض ظواهرها الصوتية واللفظية؛ فكثير من قضايا الدلالة كالترادف، والاشتراك، والإبدال يمكن أن يكشف البحث المقارن عن بعض غموضها، وأسباب حدوثها، كما أن هذا البحث يوضح كثيراً من التبدلات الدلالية.

• طريقة البحث في اللغات السامية:

وقد سار البحث في اللغات السامية في اتجاهين:

_ أحدهما: تاريخي: يتناول الحديث عن موطن الساميين، وهجراتهم، وصراعاتهم مع الشعوب الأخرى، والممالك التي أقاموها، والآثار التي خلفوها وغير ذلك من البحوث التاريخية.

_ والثاني: لغوي: يعتمد على الدراسة الوصفية لكل لغة من حيث أصواتها، ومفرداتها، وتراكيبها، ثم المقارنة بين هذه اللغات للخروج بقوانين عامة للغات السامية، ومحاولة معرفة اللغة الأولى.

والباحث في اللغات السامية يحتاج إلى الجمع بين الجانبين التاريخي واللغوي.

2-2-الموطن الأول للساميين

اختلف العلماء كثيراً حول تحديد المكان الأول الذي عاش فيه الساميون، وسلخوا للإجابة على السؤال مسالك متعددة، وخرجوا بأراء مختلفة تبعاً للمنهج الذي اعتمده في بحث المسألة، ومن أشهر ما قيل في ذلك:

1_ رأى بعض الباحثين أن يكون شمال أفريقيا أو بلاد الحبشة _ الموطن الأول للساميين، وأنهم نزحوا منها إلى جنوبي الجزيرة عن طريق باب المندب.

وقد استندوا في ذلك على ما لاحظوا من أوجه التشابه بين الحاميين والساميين، وإلى وجود أوجه بين اللغات السامية والحامية.

وهذه النظرية لا تستند على أسس قوية؛ فقد اعترضَ عليها بأن التشابه بين السامية والحامية محدود، وأنه لم يكن للغات السامية وجود أو أثر يذكر عند الفتوح الإسلامية لشمال أفريقيا مما ينفي كون تلك المناطق مهداً للساميين.

2_ واعتمد بعض العلماء على المآثورات الدينية؛ ففي قصة الطوفان أن السفينة رست عند منابع دجلة والفرات، فرأى بعض العلماء أن مرتفعات كردستان، أو بلاد أرمينية هي المكان المقصود، وافترضوا أن تكون موطناً للساميين.

وبناءً على هذه النظرية فإن الموطن الأول للغات كلها هو ذلك المكان.

ولكن أصحاب النظرية يقولون أن (حام) طرد، وأن (يافش) انطلق إلى مكان آخر، ولم يبق هناك إلا (سام) والنظرية _ كما يبدو _ تعتمد على تصورات لا تستند إلى كثيراً إلى الواقع؛ لذا لم يكتب لها الزواج كسابقتها.

3_ وافترض بعض العلماء أن تكون بلاد كنعان _ الشام _ الموطن الأول للساميين، واعتمدوا في ذلك على دراسة الأساطير، والمآثورات الشعبية.

ولكن العلماء يعترضون على هذه النظرية بأن الانتقال من بلاد الشام الخصيبة إلى أرض الجزيرة انتقال شاق لا داعي له، وأن تلك الهجرات التي تمت في القرن الرابع ق.م تحتاج إلى الإبل التي ثبت أنها لم تستأنس إلا في الألف الثالث ق.م.

4_ ونظرية رابعة ترى أن سهول العراق وما بين النهرين هي البيئة الأولى التي نشأ فيها الساميون، وأول من قال بهذا الرأي العالم الإيطالي (جويدي) وتابعه على ذلك جماعة من العلماء.

وحجة جويدي في ذلك لغوية؛ فقد وجد أن كلمة (نهر) معروفة في كل اللغات السامية بنفس اللفظ على حين تختلف كلمة (جبل) من لغة سامية إلى أخرى، كما لاحظ أن كثيراً من أسماء النباتات والحيوانات تشبه ما يوجد في البابلية الآشورية التي كانت في العراق أكثر مما تشبه العربية، واستخلص من ذلك أن يكون الساميون قد عاشوا في سهول العراق.

وبخاصة إذا عرفنا أن البابلية الآشورية لها نصوص مكتوبة منذ الألف الرابع ق. م، وهي أقدم كتابات سامية.

والاعتراضات الموجهة إلى هذه النظرية قائمة على أساس أن تاريخ العراق معروف قبل البابليين عن طريق النقوش السورية، والسوريون ليسوا ساميين، وأن أحد ملوك الساميين في العراق، وهو الملك الأكادي سرجون الأول 2600 ق.م _ كتب عن أصله في نقش مشهور ما يفهم منه أنه وعشيرته قدموا إلى بلاد الرافدين من جزيرة العرب.

أما الألفاظ اللغوية فقد تكون مستعارة من لغات غير سامية، وقد يكون الساميون عرفوا النهر قبل أن يعرفوا الجبل، ولكن ليس من الضرورة أن يكون دجلة أو الفرات.

5_ أما أشهر الآراء وأرجحها فهو القائل إن شبه الجزيرة العربية هي الموطن الأول للساميين، وقد مال إلى هذا الرأي كثير من المستشرقين، واستندوا في ذلك إلى عدة أدلة منها:

أ_ المسكن: فأكثر المناطق التي حُددت على أنها الوطن الأول للساميين كانت مسكونة بشعوب غير سامية، على حين لا يُعرف قومٌ غير الساميين سكنوا جزيرة العرب.

ب_ الهجرات: فالتاريخ يتحدث عن هجرات كانت تنطلق من جزيرة العرب إلى بلاد الشام والعراق، ولم يذكر عكس ذلك، وقد استمرت تلك الهجرات حتى غمر المهاجرون أرض العراق والشام وأفريقيا.

والنقوش السورية تبين أن بلاد سومر كانت مهددة دائماً بمحركات قبائل تأتي من الجهات الجنوبية والجنوبية الغربية.

جـ_ ملائمة بلاد العرب: فقد ذكر بعض العلماء أن بلاد العرب كانت في العصور القديمة كثيفة بالسكان، خصبة الأرض، موفرة الخيرات، تخرقها عدة أنهر، وأنه على أثر بعض الظواهر الجيولوجية فقدت تلك المناطق خصبتها، فنزح أكثر سكانها إلى مناطق أخرى.

وقد عرف العرب السدود والأنهار، وقصص القرآن الكريم تحدثنا عن (سبأ) و (عاد) و (ثمود) وغيرهم كما تحدثنا عن القصص الدينية والروايات التاريخية عن كثير من الأمم التي سكنت جزيرة العرب، وكانوا يعيشون في رغد من العيش، وأن الله _ تعالى _ انتقم من كثير منهم لكفرهم بنعم الله _ تعالى _ .

د_ أن العرب أقرب الشعوب إلى السامية: فالمستشرقون يرون أن أقرب الشعوب إلى الساميين لغة، وخلقاً هم العرب، الذين بقوا في أرضهم ولم يختلطوا كثيراً مع غيرهم، وأن كثيراً من الألفاظ السامية يعبر عن عقلية تعتمد على المشاهدات الحسية التي تنشأ في الصحراء.

هذه الأدلة دفعت بكثير من العلماء إلى الأخذ بهذا الرأي، وإلى افتراض أن أقدم موطن للساميين هو جزيرة العرب، أو أنها أقدم موطن عرف للساميين، بمعنى أنه لا يستبعد أن يكونوا قد نزحوا إليها من مكان آخر في فترة موعلة في القدم.

2-3- الخصائص المشتركة للغات السامية

يرى العلماء أن صلات القرى، والصفات الجامعة بين اللغات السامية كثيرة وواضحة، وأشد ظهوراً مما هي بين مجموعة اللغات الهندية الأوربية، وقد مر بنا أن بعض علماء العربية تنبهوا إلى العلاقة والرابطة بين العربية وغيرها دون معرفة بتلك اللغات.

أما اللغات الهندية الأوربية فلا يستطيع إدراك الروابط بينها إلا الباحثون المدققون.

وأسباب كثرة الروابط بين اللغات السامية عديدة منها:

1_ أن الساميين لم يتفرقوا في مناطق شاسعة متباعدة من الأرض كما هو الحال بالنسبة للغات الهندية الأوربية.

2_ وأن الساميين مع تفرقهم وانتشارهم لم تنقطع الاتصالات بينهم، ولم تتوقف هجراتهم.

3_ أن أكثر اللغات السامية ترتبط بالأديان والحضارات التي حرص أهلها عليها، وتمسكوا بها، فارتباط العربية بكتاب الله _ تعالى _ وتمسك اليهود والسريان والآراميين وغيرهم بمعتقداتهم وعباداتهم جعلهم يرتبطون بلغتهم، فلم ينلها تغير كبير، ولم تباعد عن أصولها الأولى بعداً واسعاً.

أما أهم الخصائص التي تجمع اللغات السامية فهي ما يلي:

1- **من الناحية الصوتية:** تمتاز اللغات السامية باحتوائها على حروف الحلق (الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والحاء) بحيث لا تخلو لغة سامية من بعض هذه الحروف، ويضيع منها بعضها، أو يتحول إلى صوت آخر تحت تأثير اللغات الأخرى.

وقد استنتج العلماء أن السامية كانت تعرف حروف الحلق كما هي في العربية، وأن فقدتها من غير العربية طراً على الساميات، خصوصاً حرف (الحاء) حيث زعم ابن فارس أن الحاء، والطاء مما اختصت به العرب. وقال _ أيضاً _: "وزعم أناس أن الضاد مما اختصت به العرب دون غيرهم".

وحروف التفخيم أو الإطباق: (ص، ض، ط، ظ، ق) من مميزات اللغات السامية، وقد أجمع الباحثون على وجود القاف والطاء والصاد في كل اللغات السامية، أما الظاء فيظن أنها متطورة عن الصاد، والضاد من خصائص العربية فلا توجد في غيرها _ كما مر _.

والحروف بين الأسنان (ذ، ث، ظ) مما تُمَيِّزُ السامية؛ فالذال والطاء صوتان أصليان في السامية الأولى، وإن فُقدَا من بعض اللغات السامية، وتحولتا إلى أصوات أخرى كما هو الحال في العاميات العربية.

2_ ومن الناحية الصرفية: تعتمد اللغات السامية على الأصوات الساكنة، ويتحدد معنى الكلمة بالسواكن، ولا يكون للحركات قيمة كبيرة في ذلك، ويغلب على اللغات السامية الأصول الثلاثية، ويوجد فيها بعض الأصول الثنائية والرباعية، كما أن اللغات السامية لغات اشتقاقية تصريفية، وتعتمد على السوابق واللواحق في الزيادة على المعنى الأصلي.

3_ وزمن الفعل في اللغات السامية ينقسم إلى ماض، ومستمر، ولا تعرف اللغات السامية في الأصل غير هذين الزمنين على حين نرى اللغات الهندية الأوروبية ينقسم زمن الفعل فيها إلى عدة أقسام.

4_ وتعرف اللغات السامية حاليين فقط من حيث الجنس، وهما المذكر والمؤنث ولا تعرف نوعاً ثالثاً، وتدخل ما ليس بمذكر أو مؤنث حقيقي في أحدهما مجازاً.

5_ كما أن اللغات السامية تُقسّم الاسم من حيث العدد إلى مفرد ومثنى وجمع، والمثنى لا يعرف في كثير من اللغات.

6_ وظاهرة الإعراب ظاهرة سامية قديمة؛ فهي معروفة في النقوش القديمة كالأكدية كما هو الحال في العربية، وفُقدَ الإعراب في بعض اللغات السامية حَدَثٌ متأخر.

7_ ومما يربط بين اللغات السامية أننا نجد كثيراً من المفردات تتشابه معانيها، كالاشتراك في الضمائر، والأعداد، وأسماء الأسرة، وأعضاء الجسم، وبعض الألفاظ الدالة على المعيشة.

هذه الصفات والخصائص المشتركة بين اللغات السامية جعلت الباحثين يؤكدون أنها لغات لها أصل واحد، وهذا لا يعني أنه لا يوجد اختلافات بين هذه اللغات، فبالإضافة إلى ما أصاب اللغات السامية من تغيير في أصواتها، وما دخلها من ألفاظ واستعمالات _ فإن بينها فروقاً ليست قليلة في أداة التعريف، وعلامات التثنية والجمع، وكثير من المفردات.

أما أقدم لغة سامية، أو أقرب لغة سامية إلى الأصل المشترك، أو اللغة الأولى للساميين كما يتصورها العلماء _ فهو أمر مختلف فيه وإن كان أكثرهم يرى أن العربية أقرب اللغات إلى السامية الأولى؛ فالأبجدية الصوتية التي رسمها العلماء للسامية الأولى قريبة إلى حد ما من الألفبائية العربية، والعربية لم تَفقد شيئاً من مخارجها، وحافظت على ظاهرة الإعراب كاملة، كما أن المفردات والتصريف، وتركيب الجملة السامية الأولى مما حافظت عليه العربية.

وليس ذلك غريباً إذا ما تذكرنا أن أرجح الآراء ترى أن جزيرة العرب موطن الساميين، ومن ثم يكون سكان الجزيرة الذين لم يغادروا أرضهم ولم يختلطوا إلا قليلاً بغيرهم، والذين توارثوا الديانات والحضارات _ هم أجدر الناس بالمحافظة على خصائص لغتهم الأم.

المحاضرة الرابعة: اللهجات العربية

تمهيد

تساءل العلماء كثيراً عن العربية التي نزل بها القرآن الكريم، ووصلنا بها الشعر الجاهلي، وكُتِبَ بها تراثنا الإسلامي، والتي لا تزال لغة العرب في كل مكان، ويستخدمها المسلمون في العالم كله في عباداتهم، وفي كثير من شؤون حياتهم، تساءلوا: هل كانت قبائل العرب جميعاً تتكلم بهذه اللغة، أو هي لغة قريش وحدها سادت بعد الإسلام ونزول القرآن بها؟

ولقد اختلف العلماء في الإجابة عن هذا السؤال، فمنهم من ادعى أن العربية التي وصلتنا هي لغة قريش وحدها.

ومنهم من قال: إنها لغة مشتركة للعرب جميعاً، تعاملوا بها، واستعملوها في لقاءاتهم ومواسمهم الدينية والثقافية والتجارية، وإلى جانب هذه اللغة كان لكل قبيلة لهجة خاصة بها، أو لغة خاصة.

وإذا كان الرأي الثاني هو الأرجح فهل يعني أن القبائل العربية المتعددة كانت تتكلم بلغات، أو باللهجات بعيدة عن الفصحى المشتركة؟ .

وهل وجود هذه اللهجات يعني أن العرب لم يكونوا جميعاً يتكلمون بالفصحى، أو يتعاملون بها؟ .

أو أنهم كانوا يتعاملون في حياتهم اليومية بلغات خاصة، ثم يتخاطبون بالفصحى عند لقاءاتهم؟ .

والإجابة القاطعة على هذه التساؤلات ليست سهلة لأمر منها ما يلي:

1_ أن ما وصلنا من روايات عن لهجات العرب قبل الإسلام ليس بالشيء الكثير الذي يمكن أن يصور لنا حجم هذه اللهجات ومدى بعدها أو قربها من الفصحى.

2_ وأن ما وصلنا من أدب جاهلي لا يمثل اللهجات الخاصة بقبائل شعرائه بقدر ما يمثل الفصحى.

3_ ولأن العلماء أضرَبوا كثيراً عن نقل اللهجات؛ لأن ما وصلنا من أخبار وروايات عن اللهجات العربية، وما جاء منها في القراءات المتواترة وغير المتواترة يمكن أن يُستنتج منه بعض خصائص اللهجات العربية، ويبين لنا أن الاختلافات بين اللهجات لا تعدو أن تكون اختلافات قليلة من إمالة صوت، أو إبداله، أو إدغامه، أو إعمال حرف عند قبيلة تهمله قبيلة أخرى، أو اختلاف في دلالة لفظ بين قبيلة وأخرى، أو أنها _ بصفة عامة _ لا ترقى إلى درجة الزعم بأن اللهجات العربية كانت متباعدة، أو أنه كان لكل قبيلة لهجة خاصة.

وقبل الحديث عن أشهر سمات اللهجات العربية وما بقي منها في عريتنا اليوم لابد من التقديم بحديث عن تعريف اللهجة، وأسباب حدوثها، والغرض من دراسة اللهجات.

1- مسائل في اللهجات

أولاً: معنى اللهجة: يفهم من معنى اللهجة في المعاجم العربية أنها اللغة، أو طريقة أداء اللغة، أو النطق، أو جرس الكلام ونغمته.

ويعرّفها المحدثون بأنها: الصفات أو الخصائص التي تتميز بها بيئة ما في طريقة أداء اللغة أو النطق.

ثانياً: انقسام اللهجات والعلاقة بينها:

وبناءً على ذلك التعريف السابق فاللغة الواحدة قد تنقسم إلى عدة بيئات لغوية لكل منها لهجة خاصة، أو صفات لغوية معينة، ويشترك أفراد البيئات المختلفة أو المتكلمون باللهجات المتعددة في أكثر خصائص اللغة.

فإذا قلنا: اللغة العربية قصدنا اللغة التي يتفاهم بها المسلمون، ويقرؤون بها ويكتبون، ويسمعون عباراتهم، فيفهمونها.

أما إذا قلنا لهجة الجنوب، أو الشام قصدنا طريقة أداء أهل تلك المنطقة للغة، فقد تكون لهم خصائص معينة يختلفون فيها عن غيرهم.

والخصائص التي تميز اللهجة قد تكون صوتية؛ فجماعة تنطق القاف كافاً، أو الجيم ياء، أو الذال زايًا. . .

وقد يكون في ترقيق صوت أو تفخيمه، أو في طريقة النبر ونظام المقاطع.

وقد تكون هذه الخصائص في بنية الكلمة ووزنها، وفي تقديم بعض الأصوات على بعض.

وقد يكون الاختلاف في تركيب الجملة، والربط بين أجزائها كما قد يكون في دلالات بعض الألفاظ.

ولكن اللهجات التي تنتمي إلى لغة واحدة يجمع بينها روابط صوتية ولفظية، ودلالية، وتركيبية كبيرة.

وكلما ازدادت الصفات المشتركة بين مجموعة اللهجات ازداد التقارب بينها.

وعلى العكس من ذلك إذا قلت الصفات المشتركة بين هذه اللهجات ابتعدت عن بعضها حتى تصبح هذه اللهجات مع مرور الزمان كأنها لغات لا يربط بينها إلا روابط ضعيفة.

ويُذكر أن أكثر اللغات المعروفة انفصلت عن لغات أسبق، فهي _ في الأصل _ لهجة من اللغة الأم أو فرع منها، ثم اتسعت الفروق بينها وبين اللغة الأصلية حتى غدت لغة مستقلة كما حدث في مجموعات اللغات الهندية الأوربية، أو في اللغات السامية.

ثالثاً: أسباب حدوث اللهجات: هناك عوامل مختلفة تؤدي إلى حدوث اللهجات، منها ما يلي:

1_ العامل الجغرافي: فقد تتسع الرقعة الجغرافية للمتكلمين باللغة، وتفصل بينهم الجبال والأنهار، ويقل الاتصال بينهم؛ فتأخذ اللغة في التغيير شيئاً فشيئاً، ويسلك المتكلمون باللغة مسلكاً مختلفاً عن غيرهم، فيؤدي ذلك إلى حدوث لهجة جديدة.

2_ العامل الاجتماعي: فالظروف الاجتماعية في البيئات المتعددة الطبقات تساعد على حدوث اللهجات؛ فكل طبقة تحاول أن يكون لها لغتها، أو أسلوبها اللغوي المميز.

3_ العامل السياسي: فانفصال قبيلة أو دولة عن غيرها، واعتناق المذاهب السياسية، أو الدخول في الديانات الجديدة يساعد على دخول ألفاظ واصطلاحات جديدة في اللغة.

4_ الصراع اللغوي والاحتكاك: وربما كان ذلك أهم العوامل التي تساعد على حدوث اللهجات؛ فالصراع بين لغتين يؤدي إلى انتصار إحداها على الأخرى طبقاً لقوانين لغوية؛ فالأقوى حضارةً ومادّةً قد يُكتَب له الانتصار، ولكن اللغة المغلوبة تترك أثرها في الغالبين، وتؤدي إلى تطور، أو تغيير في لغتهم.

كما أن اختلاط الأقاليم ببعضهم يؤدي إلى التغييرات اللغوية، فاللغات السامية التي دخلت العراق احتكت بالسومرية، وانتصر الساميون على السكان الأصليين للعراق بعد أن أخذوا منهم الكثير، وبعد أن فقدوا كثيراً من مميزات لغتهم الأصلية.

والمسلمون بعد فتح فارس، والمغرب وغيرهما نشروا العربية.

ولكن هناك لهجات خاصة نشأت في تلك البلاد؛ نتيجة الاحتكاك بين الفاتحين وسكان البلاد الأصليين.

رابعاً: اللهجة الخاصة: إلى جانب اللهجة التي سبق الحديث عنها، وعن أسباب حدوثها هناك ما يسمى بـ اللهجة أو اللغة الخاصة، وهي تلك التي تستعملها طوائف وجماعات خاصة؛ ففي سلك القضاء أو الطب، أو أعمال الحدادة، أو النجارة، أو بين اللصوص وقطاع الطرق _ تجد ألفاظاً واصطلاحاتٍ لا تستخدم إلا عندهم، وتمتاز هذه اللغات باستخدام التعبيرات الاستعارية، واستعمال الألفاظ في غير مدلولاتها الحقيقية.

وقد تنشأ هذه اللهجات نتيجة شعور أصحابها بالعزلة أو معادتهم للنظام، أو رغبة في التمويه، أو تمييز أنفسهم.

خامساً: اللغة المشتركة: ويقصد باللغة المشتركة مجموعة الصفات اللغوية التي تجمع بين لهجات اللغة الواحدة، وتجعل الأفراد المتكلمين بهذه اللهجات يتفاهمون مع بعضهم بسهولة، فهي لغة وسيطة تقوم بين المتكلمين بلهجات مختلفة.

وتتميز اللغة المشتركة _ إضافة إلى أنها مفهومة لدى جميع المتكلمين بها أو سامعيها _ أنها فوق مستوى العامة، وأنها لا تنتمي إلى بيئة واحدة، وإنما هي مزيج بين اللغات أو اللهجات المختلفة.

2-دراسة اللهجات العربية

لقد كان لسيادة اللغة القرشية _ لغة القرآن الكريم _ أثر كبير في نظرة علماء العربية إلى غيرها من اللهجات؛ حيث أُضرب بعضهم عن نقل غير الفصح لأنهم يفضلون لغة قريش على غيرها.

وسيمر بنا عند الحديث عن لغة أو لهجة قريش أنه كان لها النصيب الأوفى في الفصحى، وأن قريشاً كانت تختار من لغات العرب أفصحها، فتضمها إلى لغتها، وتستعملها.

وعلى الرغم من شيوع تلك اللغة في العصر الجاهلي، وأنها أصبحت لغة الأدب عامة، وأن القبائل العربية قد اصطلحت فيما بينها على هذه اللغة الفصحى، وأن الشعراء كانوا على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون شعرهم في تلك اللغة، وأن الواحد منهم إذا أراد نظم الشعر تجافى عن لهجة قبيلته المحلية إلى تلك اللهجة الأدبية العامة، بالرغم من ذلك كله كانت هناك لهجات كثيرة تميزت بها بعض القبائل، وظلت آثارها واضحة على ألسنتها إلى القرن الثاني للهجرة، حيث سجلها بعض اللغويون، وأطلقوا عليها ألقاباً تدل على استهجان هذه اللهجات ولم يكونوا يُعنون بنسبة هذه اللهجات إلى أصحابها؛ فقد كانت تهمهم الصحة اللغوية، وكأنهم يريدون التنبيه على ما يخالف اللغة الأدبية العامة التي نزل بها القرآن

أمثلة عن اللهجات العربية المدمومة أو المستهجنة:

1/ الكشكشة: وهي في ربيعة ومضر، وقد تروى لأسد، وهوازن.

والكشكشة: هي إبدال كاف الخطاب في المؤنث شيئاً في حالة الوقف وهو الأشهر، وبعضهم يثبتها في حال الوصل _ أيضاً _.

فيقولون في رأيتك: رأيتكش، وبك: بكش، وعليك: عليكش.

وبعضهم يجعل الشين مكان الكاف ويكسرهما في الوصل، ويسكنها في الوقف فيقولون في مررت بك اليوم: مررت بش اليوم، وفي مررت بك في الوقف: مررت بش.

وأنشدوا على ذلك قول الشاعر:

ولكن عظم الساق منشٍ دقيق

فعيناها وعيناها جيدها

يريد: عيناك، وجيدك، ومنك.

وقول الآخر:

عهدي ومن يحلل بواديش يعيش

يا دارُ حِيَّتٍ ومن ألمَّ بشُ

يريد: بك، وبواديك.

2/ الكسكسة: وهي إبدال كاف المخاطبة سيناً، أو زيادة سين على كاف المخاطبة؛ وهي كالكشكشة إلا أن السين تحل محل الشين، في هذه اللهجة.

وبعض العلماء ينسبها إلى ربيعة ومضر وبكر وهوازن.

ونقل الحريري أنها لبكر لا لربيعة ومضر، وهي فيما نقله زيادة سين بعد كاف المخاطب.

وروى صاحب القاموس أنها لتميم لا لبكر، وفسرها كما فسرها الحريري.

3/ الشنشنة: وهي قلب الكاف شيئاً مطلقاً، فيقولون: في لبيك اللهم لبيك: لبيش اللهم لبيش، ويقولون في: كيف: شيف، أو تشيف.

وتنسب هذه اللهجة إلى قبائل من اليمن، وتغلب، وقضاعة.

ويلحظ أن الشنشنة، والكشكشة لهما بقايا في عديد من اللهجات العربية في الخليج العربي والشام.

4/ التلاتة: وهي كسر أحرف المضارعة مطلقاً، وينسبها بعض العلماء إلى كثير من قبائل العرب كتييم، وخصوصاً بطن بھراء منها. وتنسب كذلك إلى قيس وغيرها. بل زعم بعضهم أن هذه لغة العرب جميعاً عدا أهل الحجاز.

وقد جاءت هذه اللهجة في القرآت القرآنية مثل: (نستعين، وتبييض، وتسود).

ونسب ابن فارس هذا الكسر لأسد، وقيس إلا أنه جعله عاماً في أوائل الألفاظ فمثل له بقوله: (مثل: تعلمون، ونعلم، وشعير، وبعير).

5/ الطمطمائية: وهي إبدال لام التعريف ميماً.

وقد جاء على اللهجة قول النبي "ليس من امبر امصيام في أمسفر" أي: (ليس من البر الصيام في السفر).

وتنسب إلى طيء، والأزد، وقبائل اليمن بعامة. ولا تزال في بعض قبائل جنوب الجزيرة واليمن.

6/ العنعة: وهي قلب الهمزة المبدوء بها عيناً.

فيقولون في: إنك: عنك، وفي أسلم: عسلم، وفي إذن: عذن، وهلم جراً.
وتعزى هذه الظاهرة إلى تميم، وقيس، وأسد، وقضاعة.

7/ العجعة: وهي جعل الياء المشددة جيماً، فيقولون في تيمي: تيمج.

وكذا يجعلون الياء الواقعة بعد عين، فيقولون في الراعي: الراعج وهكذا. وتنسب هذه اللهجة إلى قضاعة؛ ولهذا يقال: عجعة قضاعة.

8 / الاستنطاء: في لغة سعد بن بكر، وهذيل، والأزد، وقيس، والأنصار؛ حيث

يجعلون العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء؛ فيقولون في أعطى: أنطى.

وعلى لغتهم قرئ شذوذاً: [إنا أنطيناك الكوثر].

3- لهجة قريش وعوامل سيادتها

أولاً: سيادة لهجة قريش:

مر بنا عند الحديث عن اللهجات أن هناك لغة مشتركة كان العرب ينظمون بها شعرهم وخطابهم، وأنهم اصطالحوا على هذه اللهجة الفصحى.

وهذه اللهجة أو اللغة المشتركة يطلق عليها أحياناً لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم، ووصلنا بها الشعر الجاهلي.

ولقد كان لقريش الحظ الأوفر من هذه اللغة، مما حدا ببعض الباحثين إلى تسميتها

بالقرشية.

بل لقد استقر في نفوس الأسلاف أن هذه اللهجة الفصحى إنما هي لهجة قريش، وأن قريشاً كانوا أفصح العرب، وأنهم مع ذلك كانوا يتخيرون من كلام الناس أحسنه وأصفاه.

قال أبو نصر الفارابي: "كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانة عند النطق"

وقال أحمد بن فارس: "... أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحامهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنةً، وأصفاهم لغةً."

وذلك أن الله — جل ثناؤه — اختارهم من جميع العرب، واصطفاهم، واختار منهم نبياً الرحمة محمداً " فجعل قريشاً قُطَّانَ حرمة، وجيران بيته الحرام، وولاته؛ فكانت وفود العرب من فجاجها وغيرهم يفتدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم، وتحكم بينهم.

ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم، وتسميهم (أهل الله) لأنهم الصريح من إسماعيل — عليه السلام — لم تُشَبِّهُم شائبة، ولم تنقلهم عن مناسبتهم ناقلة، فضيلةً من الله — جل ثناؤه — لهم، وتشرينفاً؛ إذ جعلهم رهط نبيه الأولين، وعترته الصالحين.

وكانت قريش — مع فصاحتها، وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها — إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفي كلامهم؛ فاجتمع ما تخير من تلك اللغات إلى نحائزهم (جمع نحيزة وهي الطبيعة)، وسلاتقهم التي طبعوا عليها؛ فصاروا بذلك أفصح العرب.

ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عننة تميم، ولا عجرية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد، وقيس مثل: تعلمون، ونعلم، ومثل: شعير، وبعير".

ثانياً: عوامل سيادة لهجة قريش

لقد تضافرت عوامل عديدة جعلت قريشاً تسود العرب زعامة، ومدنية، ولغة قبل

الإسلام.

وفيما يلي إجمال لتلك العوامل:

1_ المكانة الدينية لموقع قريش: فقريش تقطن مكة، والعرب يحجون البيت الحرام، ويعترفون لقريش بالنفوذ الديني.

2_ العامل الاقتصادي: فأسواق مكة، وشهرتها الاقتصادية، وقيامها بين الشام واليمن جعل لقريش مكانة عظيمة بين القبائل.

3_ العامل الثقافي: حيث كان التجار والشعراء والخطباء يرتادون أسواق مكة، ومنتدياتهم الثقافية والأدبية.

ومما يدعم هذا العامل ما ذكره الرواة من أن العرب تعرض أشعارها على قريش؛ فما قبلوه كان مقبولاً، وما ردوه كان مردوداً، فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمي فأنشدهم قصيدته:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم
فقالوا: هذه سمط الدهر أي: قلاذته.

ثم عاد من العام المقبل، فأنشدهم قصيدته:

طحابك قلبٌ في الحسان طروب بُعيد الشبابِ عصرَ حان مشيبُ
فقالوا: هاتان سمطا الدهر.

ويدلك على عنايتهم بأمر الفصاحة ما وصل إلينا من نتائج أفكارهم، وبدائع خطبهم وقصائدهم في سوق عكاظ، وسوق مجنة؛ إذ يفدون عليهما في موسم الحج، ويقيمون في سوق عكاظ ثلاثين يوماً، وفي مجنة سبعة أيام يتناشدون ما وضعوه من الشعر، ويتفاخرون بجودة صنعة الكلام.

وعند احتفالهم يضربون قبة للشاعر العظيم في وقته (النابعة الذيباني) ويعرضون عليه منتخبات أشعارهم:

4-العامل السياسي والجغرافي: حيث كانت مكة أبعد المناطق عن صراع الفرس

والروم والأحباش؛ فعلى حين تعرّضِ عرب الشام، والعراق واليمن وأطراف الجزيرة إلى الخطر دائماً من عدوهم، وأنهم قد اختلطوا بالأعاجم مما أدخل في لغتهم الكثير نجد أن أهل مكة يعيشون في استقلال، وحرية، وبعد عن الأخطار مما جعل العرب ينظرون إلى مكة وأهلها نظرة تقدير وإجلال.

5_ أيام العرب: وهي الحروب التي كانت تشنها قبائل العرب بعضها على بعض، أو تشنها على الأجانب لأي سبب من الأسباب.

وكان دعامتهم في هذه الحروب الكلام البليغ الذي يلجأ إليه قوادهم، ورؤسائهم، وساداتهم، وجنودهم؛ للتفاخر، وتعداد المآثر، واستفزاز الهمم، والحث على الشجاعة. وكان جميع ما يقال في هذه الحروب مؤلفاً بلغة قريش، وغنيٌّ عن البيان ما كان لذلك من أثر في نهضة هذه اللغة، وتجويدها، واتساع نطاقها.

6_ سعة لغة قريش وغزارتها: فلغة قريش كانت أوسع اللغات ثروة، وأغزرها مادة، وأبعدها عن اللهجات المعيبة _ كما مر _.

7_ نزول القرآن بها: فالقرآن الكريم نزل بلغة عربية أكثرها لقريش، ولكنها معروفة للعرب جميعاً.

فهذه العوامل مكّنت للغة قريش، وجعلت لها السيادة والريادة.